الماء وعوالم الأنوثة

غاستون باشلار

ترجمة : عبد العلي اليزمي

إن الكائن الذي يغذينا بحليبه، بمادته الخاصة، يطبع بعلامته التي لا تنمحي صورا جد متنوعة، بعيدة جدا وخارجية جدا، و لا يمكن إخضاع هذه الصور للتحليل القويم عبر المواضيع المعتادة للخيال الشكلي. باختصار، وكما سنبين ذلك، أن هذه الصور القيمة لها من المادة أكثر مما لها من الشكل. ولإبراز ذلك سنقوم بدراسة دقيقة للصور الأدبية التي تدعي قدرتها على إرغام المياه الطبيعية، ماء البحيرات والوديان، بل حتى ماء البحور نفسها على استقبال الملامح والاستعارات الحليبية. وسنبين سنظهر أن هذه الاستعارات اللامعقولة تدل على حب لا ينسى.

كما سبق أن لاحظنا ذلك، يعتبر الخيال المادي كل سائل ماء. هذا مبدأ أساسي للخيال الشكلي الذي يرغمنا على وضع عناصر أولية في جذر كل الصور الأولية. إن هذه الملاحظة مبررة بصريا وديناميكيا : بالنسبة للخيال كل ما يسيل ماء ، وقد يقول فيلسوف ما وكل ما يسيل جزء هو من طبيعة الماء. إن صفة سائل ملتصقة بالماء بشكل قوي، لدرجة أنها تخلق دائما اسمها. أما اللون فثانوي، فنه لا يعطي سوى نعت، ولا يحيل سوى على نسخة، ويذهب الخيال المادي مباشرة إلى الصبغة المادية.

إذا نحن دفعنا ببحثنا في اللاوعي إلى حدود أبعد، عبر فحص المشكل من زاوية التحليل النفسي، سنقول إن كل ماء حليب، وبصيغة أدق إن كل مشروب حلو هو بمثابة حليب الأم. لدينا هنا شرح من مستويين للخيال المادي، على درجتين من العمق اللاواعي: أولا إن كل سائل ماء وثانيا إن كل ماء حليب. لدى الحلم جذر متحرك ينغرس في اللاوعي العظيم والبسيط للحياة الطفولية الأولية، ولديه أيضا شبكة من الجذور المجدولة التي تعيش في قشرة أكثر سطحية. هذه المنطقة السطحية حيث يختلط الوعي واللاوعي هي التي شكلت موضوع دراستنا في مؤلفاتنا حول الخيال. لكن حان الوقت لإظهار

أن المنطقة العميقة هي دائما نشيطة وأن الصورة المادية للحليب تدعم الصور الأكثر وعيا للمياه. إن مراكز الاهتمام الأولى مشكلة على أساس مصلحة عضوية. إن مركز المصلحة العضوية هو الذي يجمع أولا الصور الغريبة، وسنصل إلى نفس الخلاصة إذا فحصنا كيف يتم إضفاء قيمة تدريجيا على اللغة. إن التركيب الأول يخضع إلى ما يمكن أن نسميه نحو الحاجات. إن الحليب هو أولا، في إطار نظام التعبير عن الحقائق السائلة أول إسم أو بتعبير أدق أو إسم شفوي.

لنلاحظ أن أية قيمة من القيم التي ترتبط بالفم لا يتم إغفالها. الفم والشفتان، فضاء للسعادة الأولى الإيجابية والدقيقة، الفضاء الشهواني المسموح به. إن علم نفس خاص بالشفتين يستحق لوحده دراسةمطولة.

بعيدا عن هذه الشهوانية المسموح بها، لنؤكد شيئا ما على فحص منطقة التحليل النفسي، ولنعط بعض الأمثلة على الطابع "الأمومي" للمياه. بطبيعة الحال إن الصورة الإنسانية المباشرة للحليب هي التي تشكل القاعدة النفسية للنشيد الفيدي الذي ذكره سانتيف: "المياه التي هي أمهاتنا والتي ترغب في المساهمة في القرابين تأتي إلينا وهي تتبع طريقها وتوزع علينا حليبها"(1). قد سنكون مخطئين إذا نحن اعتبرنا أن الأمر يتعلق هنا فقط بصورة فلسفية عامة تشكر الآلهة على خيرات الطبيعة. إن الأمر يتعلق بصورة أكثر حميمية، ونعتقد أنه يجب علينا أن نعطيها طابعها الواقعي المطلق. يمكننا القول إن الماء يشكل، مثل الحليب بالنسبة للخيال المادي، طعاما كاملا. ويستمر النشيد الذي ذكره سانتيف : "إن الأمبروزيا في المياه والأعشاب الطبية في المياه... أيتها المياه ادفعي نحو الكمال كل العقاقير التي تطرد الأمراض حتى يحس جسدي آثارك السعيدة، لأنعم لمدة أطول بأشعة الشمس".

يصبح الماء حليبا بمجرد ما يتم التغني به بشغف، بمجرد ما يصير الشعور بعبعدة أمومة المياه حميميا وصادقا. إذا حرك الطابع النشيدي قلبا صادقا، فإنه يعيد بانتظام غريب الصورة الأولى، أي الصورة الفيدية. في كتاب يدعي الموضوعية وعلى قدر من العلم يصادف ميشلي بشكل طبيعي صورة بحر الحليب، البحر المنعش البحر المغذي أثناء الإسرار بتأملات البحر : "إن هذه المياه المغذية ملأى بكل أنواع الذرات الذهنية الملائمة للطبيعة الرخوة للسمك الذي يفتح بطريقة متراخية فمه ويبتلع، مثل جنين يتغذى في بطن الأم المشتركة. هل يدرك أنه يبتلع تقريبا. إن الغذاء الميكروسكوبي يأتي إليه حليب. إن حتمية العالم الكبرى، الجوع، خاص بالأرض اليابسة أما هنا، في البحر، فإنه متقى ومنسي. لا جهد في الحركة، لا بحث عن الغذاء، يجب على الحياة أن تطفو مثل حلم" (2). ألا يتعلق الأمر بحلم طفل شَبِع، طفل يطفو فوق سعادته ؟ بالتأكيد، لقد قام ميشلي بطرق متعددة بعقلنة الصورة التي

تسحره، وكما قلنا ذلك من قبل، إن ماء البحر يشكل بالنسبة إليه مخاطا. لقد تم استخدام وإغناء الصورة عبر النشاط الحيوي للكائنات الميكروسكوبية التي حملت معها "عناصر ناعمة زخصبة " (ص. 115). "إن هذه الكلمة الأخيرة تفتح رؤيا عميقة على حياة البحر. يبدو أغلب أبنائه مثل أجنة هلامية "تبتلع وتنتج المادة المخاطية أثناء إشباعها للمياه عبر إعطائها الخصوبة الناعمة لرحم لامتناهي حيث يأتي باستمرار أطفال جدد ليسبحوا كما لو كانوا في حليب دائم." هذا القدر من النعومة والدفء علامات كاشفة، لا شيئ يوحي بها موضوعيا، كل شيئ يبررها ذاتيا. إن أكبر واقع يطابق أولا ما نأكله. وسيصير ماء البحر في إطار الرؤية عبر البيولوجية لميشلي "الماء الحيواني"، أول طعام بالنسبة لكل الكائنات. وأخيرا فإن أكبر دليل على أن الصورة "المغذية" تتحكم في جميع الصور الأخرى هو أن ميشلي لا يتردد ، على المستوى الكوني في المرور من الحليب إلى الثدي : " يمنح البحر الشاطئ عبر لمساته المتتالية التي تجعله أكبر شكلا ومستديرا، وملامح أمومية، بل كدت أقول الدفئ الظاهر لثدي المرأة، أي ما يجده الطفل ناعماا وحاميا ودافئا ومريحا". في أي خليج وأمام أي رأس بحر مستدير كان ميشلي سيرى صور ثدي امرأة لو لم يكن سقط أولا تحت تأثير سحر الخيال المادي وقوة الصورة الجوهرية للحليب ؟ أمام صورة مجازية على هذا القدر الكبير من الجرأة لا تفسير ممكنا سوى ذلك الذي يرتكز على الخيال المادي. إن المادة هي التي تتحكم في الشكل. إن الثدي مستدير لأنه ممتلئ حليبا.

إن شعرية البحر عند ميشلي بمثابة تأملات دفينة تسكن في منطقة عميقة. إن البحر أمومي والماء حليب رائع؛ وإن اليابسة تهيئ في أحشائها طعاما دافئا وخصبا ؛ وعلى الشواطئ تنتفخ الأثداء التي ستعطي كل الكائنات ذرات دسمة. إن التفاؤل توفرة.

قد يبدو أن تأكيد هذا الانتماء المباشر لصورة الأمومة يطرح بشكل مغلوط مشكل الصور والمجازات. ولمحاججتنا سيتم الإلحاح على كون الرؤية بسيطة وعلى كون مشهادة المناظر الطبيعية تبدو هي أيضا كما لو كانت تفرض صورا مباشرة. ويمكن مثلا أن نعترض بأن شعراء كثيرين ملهمون يحدثوننا برؤية هادئة عن الجمال الحليبي لبحيرة هادئة يضيئها القمر. لنناقش إذن هذه الصورة الأليفة في شعر المياه. رغم ما قد يبدو ظاهرا من كونها تعارض أطروحتنا حول الخيال المادي فإنها ستظهر لنا في الأخير أنه يمكننا أن نفسر أن الإغراء الذي تمارسه على مختلف الشعراء ناتج عن المادة لا عن الشكل والألوان.

كيف نتصور إذن فيزيائيا واقع هذه الصور ؟ بتعبير آخر، ما هي الظروف الموضوعية التي تحدد إنتاج هذه الصورة الخاصة؟

يتطلب بروز الصورة الحليبية في المخيلة أمام بحيرة نائمة تحت ضوء القمر انتشار الضوء القمري وماء ضعيف التموجات لكنها قوية بشكل يجعل سطح الماء لا يعكس بشكل فج المنظر الذي تضيئه الأشعة. باختصار يجب أن يمر الماء من الشفافية إلى الصفاء التام وأن يصبح تدريجيا كثيفا، وهذا كل ما يمكن أن تقوم به. أويكفي هذا لإثارة صورة جرة الحليب، أو السطل المرغي للمرأة الفلاحة، أو الحليب الموضوعي؟ لا أظن ذلك. يجب أن نعترف بأن الصورة لا تمتلك مبدأها ولا قوتها من زاوية المعطى البصري. ولتبرير قناعة الشاعر وتبرير تواتر وطبيعية الصورة يجب إدماج المكونات التي لا نرى في الصورة، وهي مكونات ذات طبيعة غير بصرية. وهي بالضبط المكونات التي سيتمظهرعبرها الخيال المادي. وعلم النفس الخاص بالخيال المادي وحده يمكنه تفسير هذه الصورة في شموليتها ووجودها الحقيقيين. لنحاول إذن دمج كل المكونات التي تحرك هذه الصورة. ما هي في آخر المطاف صورة الماء الحليبي هاته ؟ إنها صورة ليلة دافئة وسعيدة، صورة مادة صافية وحاضنة، صورة تأخذ في نفس الآن الهواء والماء، السماء والأرض وتوحدهما، صورة كونية واسعة، شاسعة ولطيفة. إذا نحن عشناها حقا، فسنعترف أن من يسبح في الضوء الحليبي ليس هو العالم بل المتفرج المشاهد الذي تلفه سعادة غامرة لدرجة أنها تذكر بتلك النشوة القديمة التي يشكلها ألطف الأغذية. هكذا لن يكون حليب النهر متجمدا، ولن يقول لنا الشاعر أبدا أن ضوء قمر الشتاء يسطع بضوء حليبي على المياه. إن دفء الهواء ولطف الضوء وسكينة الروح أمور ضرورية للصورة. هذه هي المكونات الأولية والقوية. إن البياض لن يأتي إلا فيما بعد. سيتم استنتاجه. سيبدو كنعت يصاحب الإسم بعد الإسم. إن نظام الكلمات الذي يريد أن يكون اللون أبيض مثل الحليب في عالم الأحلام خادع. إن الحالم يأخذ أولا الحليب ثم ترى عينه المثقلة بالنوم بعد ذلك أحيانا البياض.

لن نختلف كثيرا حول البياض في عالم الخيال، إن إضافة شعاع ذهبي إلى النهر لن يغير من شيء في الخيال الشكلي والسطحي للألوان. إن خيال السطح سيرى الأصفر أبيض لأن الصورة المادية للحليب على قدر من الكثافة يجعلها تتابع في عمق الفؤاد البشري زحفها اللطيف لتحقق بشكل نهائي سكينة الحالم، لتعطي مادة ومجالا لانطباع بالسعادة. الحليب أولى المهدئات. وإن سكينة الإنسان هي التي تحول المياه المتأمل فيها إلى حليب. يقول سان جون بيرس في "مدائح" :

... لكن هذه المياه الهادئة من حليب

وكذلك الحال بالنسبة لكل العزلات الرخوة الصباحية

لن يحصل أي واد غاضب مهما كان بياضه على امتياز من هذا القبيل. إن اللون إذن لا يشكل شيئا ما عندما يحلم الخيال المادي بعناصره الأولى.

إن المخيال لا يجد جذوره العميقة والمغذية في الصور، إنه في حاجة أولا وجود لوجود أكثر قربا، أكثر التفافا، أكثر مادية. فالواقع الخيالي تتم إثارته قبل وصفه. إن الشعر يخاطبنا دائما. إنه كما يمكن أن يقول مارتن بوبر يدخل في إطار "الأنت" قبل أن يكون في إطار الـــ"هذا". وهكذا نجد القمر في ميدان الشعر مادة قبل أن يكون شكلا، إنه بمثابة سائل يتسرب إلى الحالم. إن الإنسان في حالته الشعرية الطبيعية والأولى "لا يفكر في القمر الذي يراه كل ليلة حتى تصل الليلة التي يأتي إليه فيها القمر في منامه أو يقظته، يقترب منه، ويسحره بحركاته، ويسعده أو يحزنه بلمساته. وما يحتفظ به ليس هو صورة قرص مضيئ متحرك ولا صورة كائن شيطاني مرتبط به بطريقة أو أخرى وإنما بصورة محركةنصورةمؤثرة للسائل القمري الذي يعْبر الجسد..."

كيف يمكن أن نقول بطريقة أفضل إن تأثير القمر بالمعنى الفلكي للكلمة، مادة كونية تقوم أحيانا بالانتشار في الكون وتمنحه وحدة خاصة؟

لا يجب أن يفاجئنا الطابع الكوني للذكريات العضوية بمجرد أن نفهم أن الخيال المادي هو خيال أولي.إنه يتصورخلق وحياة الأشياء مع الأضواء الحيوية ووثوقيات الإحساس المباشر، أي عبر الاستماع إلى دروس الإحساس الفيزيقي الكبرى لأعضائنا. لقد فوجئنا من قبل بالطابع المباشر بشكل قوي لخيال إدغار ألان بو. إن جغرافيته، أي طريقته في الحلم بالأرض مطبوعة بنفس الطريقة. وهكذا فإننا سنفهم المعنى العميق لاستكشاف غوردون بيم للبحار القطبية، إذا نحن أعطينا للخيال المادي وظيفته بالضبط، وليس من الضروري القول بأن إدغار بو لم يسبق له زيارة هذه البحار. ويستعمل إدغار بو الكلمات التالية لوصف البحر الفريد : "كانت سخونة المياه متميزة فعلا، ضاع لونها بسرعة وفقد شفافيته واكتسب طابعا ثخنا وحليبيا". لنسجل بالمناسبة أن الماء أصبح حليبيا عندما فقد شفافيته. ويتابع إدغار بو : "بالقرب منا كان البحر هادئا بشكل عادي، ولم يكن له ليهدد قاربنا، لكننا كنا نندهش في الكثير من الأحيان ونحن نلاحظ على أبعاد متفاوتة تموجات واسعة ومفاجئة من اليمين واليسار" (ص. 270) وسيكتب مستكشف القطب الجنوبي أيضا بعد ثلاثة أيام : "كانت سخونة المياه زائدة عن حدها (وإن تعلق الأمر بماء قطبي) وطابعه الحليبي أكثر بروزا من ذي قبل (ص. 271). نرى أننا لسنا أمام البحر في مجمله وفي طابعه العام، لكن أمام الماء باعتباره مادة وكينونة ساخنة

وبيضاء في نفس الآن. إنها بيضاء لأنها دافئة. لقد لاحظنا سخونتها قبل بياضها. من الواضح أن ما يلهم الحاكي ليس مشهدا بل ذكرى معينة، ذكرى سعيدة، ذكرى هادئة ومريحة، ذكرى الحليب المغذي، ذكرى الحضن الأمومي. الكل يؤكد ذلك في الصفحة التي تنتهي بالتذكير بالطفل المشبع الذي يرتمي بلطف في حضن مرضعته لينام : "كان الشتاء القطبي يقترب بالتأكيد، لكنه كان يقترب دون موكبه المخيف. كنت أحس بتصلب الجسد والفكر، وميل جارف للتأمل الحالم". لقد تم هزم الواقع المؤلم للشتاء القطبي. لقد قام الحليب الخيالي بدوره. خدر الروح والجسد. وصار المستكشف حالما يتذكر.

إن صورا مباشرة على قدر كبير من الجمال في غالب الأحيان، تستمد جمالها من روعتها الداخلية من جمال مادي ليس لها أصل آخر. ماذا شكل النهر لدى بول كلوديل على سبيل المثال ؟ "إنه تحول مادة اليابسة إلى سائل، إنه انفجار الماء السائل المتجذر في الخبايا السرية للحليب تحت تأثير جو المحيط الذي يرضع". هنا أيضا من يحكم، الشكل أم المادة ؟ هل هو الرسم الجغرافي للنهر مع حلمة الديلتا أم السائل نفسه، سائل التحليل النفسي العضوي، أي الحليب ؟ وبأية طريقة سيساهم القارئ في صورة الشاعر إن لم يكن ذلك عبر تأويل جوهري أساسا، عبر تفعيل البعد البشري لمصب النهر إلى جانب البحر الذي يرضع. وهكذا نرى مرة أخرى أن كل القيم الأساسية وكل الحركات الإنسانية قد تم الرفع من شأنها دون صعوبة على المستوى الكوني. هناك ألف ممر من خيال الحليب إلى خيال المحيط، لأن الحليب قيمة تخيلية تجد منطلقا في كل مناسبة. إن كلوديل هو الذي كتب "الحليب الذي يقول لنا عنه اليسع إنه فينا مثل فيضان البحر." ألم يشبعنا الحليب ويغمرنا بسعادة لا حدود لها ؟ سنجد صورة طوفان الحليب حية في مشهد مطر صيفي غزير ساخن ومثمر.

نفس الصورة المادية المتجذرة في قلوب الناس ستغير باستمرار أشكالها المتنوعة.

"ليأت الزمن الذي سيقوم فيه البحر بتهدئة صدره النرتفع ، وليتنفس بهدوء من كل حلماته". هكذا سيكون مشهد بحر حليبي يهدأ تدريجيا : سيكون الأم ذات الثدي المتعدد والقلب المتعدد". لقد تغنى مسترال في ميؤاي (الأنشودة الرابعة) فقال :

ولأن الماء حليب بالنسبة للاوعي، فإنه في الكثير من الأحيان يعتبر في تاريخ التفكير العلمي بمثابة مبدأ مغذي بامتياز. لا ننسى أن التغذية، بالنسبة للفكر ما قبل العلمي، وظيفة تفسيرية لا وظيفة يجب تفسيرها. ومن التفكير قبل العلمي إلى التفكير العلمي سيحدث انقلاب في تفسير البيولوجي والكيميائي. سيحاول الفكر العملي تفسير البيولوجي عبر الكيميائي. كان الفكر ما قبل العلمي يحاول تفسير الكيميائي عبر البيولوجي لأنه أقرب إلى اللاوعي. وهكذا كان "هضم" المواد الكيميائية عبر

"هاضم" عملية على قدر كبير من الوضوح بالنسبة للخيميائي. كانت الكيمياء مدعومة بالحدس البيولوجي البسيط تبدو طبيعية. كانت تنتقل بدون صعوبة من الميكروكوزم إلى الماكروكوزم، من الإنسان إلى الكون. الماء الذي يروي عطش الإنسان يسقي الأرض. إن الفكر ما قبل علمي يتصور بشكل صحيح الصور التي نعتقد أنها مجازات بسيطة. يعتقد فعلا أن الأرض تشرب الماء. في القرن الثامن عشر كان فابريسيوس يتصور أن الماء " يصلح لتغذية الأرض والهواء". لقد أصبح إذن عنصرا مغذيا. إنه أكبر القيم المادية الأولية.

النص المترجم مأخوذ من : Gaston Bachelard : L'eau et les rêves livre de poche, 1942 من الصفحة 134 إلى الصفحة 142

1-(سانتيف "فولكور المياه" ص.54 ، أنظر أيضا لويس رونو " أناشيد وصلوات الفيدا"، ص. 33): "عندما يتمنى فارونا الحليب، يغرق الأرض والتراب بل حتى السماء".//

2-ميشلي، "البحر"، ص. 109